مذكرات رشدي العامل:

حكايات طائر الفرات

هذه حكاية رشدي العامل تقدمها المدى فصولاً كتبها الشاعر الذي تالق وتألم كثيراً والصحفي الذي اعطى للفكر الانساني وللعراق دون منة، و(المدى) التي تنفرد بنشر مذكرات رشدي تجدها وثيقة ثقافية تاريخية تكشف عن فصول من حياة شاعر كبير ضاجة بالصدق والبراءة والقدرة على الاكتشاف.

المدى الثقافي

-الحلقة الخامسة-

الطريق الى بغداد .. والمتنبي

في طريقي الى العاصمة، احلم بعالم جديد من الشهرة الصبيانية.

لم تكن لدي تجربة.. أية تجربة عن عالم الطباعة والنشر، وليس بين يدي، غير فكرة غائمة ، عن دنيا الكتاب والشعراء والصحفيين، الدنيا التي لا اعرف عنها، الا ما تلقيته، خلال قراءاتي الأولى النهمة والساذجة الى حد كبير.

ان الخطوات الأولى في عالم النشر تظل خطوات متعثرة ،متوجسة، قلقة، غير انها تعطي دروساً غالية الثمن لأية موهبة شابة جديدة، مهما كان حظها من الصدق والبراعة.

لم يكن بين يدي الصغيرتين الا خيط رفيع يربطني بذلك العالم العجيب. فقد نشرت لي مجلة "العراق" التي يصدرها السيد رزوق غنام، مقطوعة شعرية صغيرة، قبل فترة طويلة، ذاك كل رصيدي.

تلمست طريقي الى مكان المجلة. في تلك الأيام كان شارع المتنبي الشارع المفضي الى بناية المحاكم، والازقة المتفرعة عنه، هو الشارع الذي يحتكر دور الصحف، والمطابع، والمكتبات، ومخازن الورق، دلفت الى دهليز ضيق، فسرداب منخفض عطن الرائحة، أسأل عن المحرر الادبي للمجلة "العراق". في ذلك الصباح تعرفت لاول مرة الى السيد أنيس زكي حسن، المحرر في المجلة الذي ربطتني به صداقة متينة، وعميقة لم تفتر أبداً، وان كانت قد غدت من قبيل الذكريات الطيبة حسب، بعد ان استأثر السلك الدبلوماسي بحياة أنيس، كما انتزعتني الصحافة والعمل السياسي من نعومة الشباب ورقة الصبا.

فيصل الياسري وشارع النهر

ولأنني لم اكن املك أية خبرة، بكل ما يتعلق بعالم النشر- كما اسلفت- فقد كان على انيس ان يقود خطاي لولوج هذا العالم.

والحديث عن المتاعب التي وجدتها، من اجل طبع كتابي الأول، موضوع لا يدعو الا للضجر، غير ان المهم فيه، انني دفعت الكتاب الى مطبعة الجامعة، بعد اتفاق مع صاحبها السيد صاحب حداد، تلك المطبعة التي قيض لي ان اعمل فيها، بعد حين، شغيلاً على ماكنة الطباعة اليدوية العتيقة.

خلال اشرافي- وهو تعبير مضحك لشاب لا يمتلك أية خبرة- على طبع كتابي، تعرفت على مجموعة من الشباب الحالمين- شأني- بالكتابة والابداع والنشر.

لقد كان فيصل الياسري، الذي يحاول كتابة القصة آنذاك، والمخرج السينمائي والتلفزيوني فيما بعد، احد الشباب الذين ربطتني بهم صداقة طيبة، مستمرة، في تلك الآونة. فيصل الياسري، بدا لي محظوظاً أيامها، فوالده يملك حانوتاً لبيع الملابس والحاجيات النسائية في شارع النهر.. الشارع الذي يملأ حواسي الفتية المتيقظة على عالم الجنس.

مترجم اللامنتمي قاد خطاي الى عالم النشر

لقد فتنت عندما ازوره في مخزنه الصغير الانيق، بعذوبة التطلع الشغوف، لمرأى النساء المترفات العابقات بعطورهن، ورائحة مساحيقهن. وكنت دائماً أدهش لطريقة فيصل في التعامل مع هاته النسوة، مع كل هذه الرقة والسحر والغنج. لكم حسدته، أيامها، على قدرته في ايجاد لغة مشتركة بينه، و بينهن، وفي متابعة الحديث معهن ببساطة وإلفة، وكنت اظل حائراً ازاء تلك البراعة، في صياغة الحوار مع نساء شارع النهر، انا الريفي القادم من مدينتي – القرية، بلد الطرقات الحجرية، ونواعير الخشب وزوارق الصفيح المقيرة، وكان فيصل يبدو لي شخصية غامضة تماماً وهو يتحدث عن اعتزام والده ارساله الى اوربا بعد اكمال دراسته الثانوية.

وربما كان صديقي يجترح مغامرات لاحقيقة لها، مع فتيات جميلات سحرهن ظرفه وخفة دمه، ونسوة مغناجات، يتطلعن الى الشاب الطري، وراء واجهة عرض المخزن الانيق، بما يحويه من الملابس الداخلية، ومشدات الصدر، وانابيق العطور الغالية، ومستحضرات التجميل، ودبابيس الشعر، والقلائد والأساور، والأقراط الملونة، تلك الادوات السحرية التي تدغدغ توق المرأة الى احاطة كيانها باطار من الفتنة والاغراء، ولم تفتني ملاحظة، ان مجتمعنا، مجتمع عاصمتنا السعيد، كان يبدأ غزواته الأول، للخروج من شرنقة دائرة الحريم الكلاسيكية، وان على شبابنا المبهور، ان يشارك في هذه اللعبة وان يدفع ثمنها.

نساء شارع النهر.. والفتاة العانية

وكنت استرجع، وانا ارقب عابرات شارع النهر، وانا اصغي الى همسهن، ورنين ضحكاتهن، في مخزن صديقي، وانا اتابع من ركن في ذهني المتقد، المنعزل المستكين والمتوهج، احاديث فيصل عن فتيات احلامه الحقيقيات والوهميات، لا فرق، استرجع وجه فتاتي الصغيرة الاسمر، أو ضفيرتها السوداء، والتماع عيونها وارتجاف شفتيها، ونحن نلص القبلات في موهن الليل الأخير، امام عتبة بيتهم الصغير المجصص، في برد ليالي الشتاء الطويل، في قريتي البعيدة. مغامرة، غموضها ولا معقوليتها، منحاها طعماً خاصاً ، على افواه اصدقائي البعيدين، في قريتي. لقد كانت فتاتي الجميلة القادمة من بغداد الى تلك المدينة المحجبة مثار احلام مستحيلة لفتيان المحلة الجائعين، كائناً انثوياً ساحراً وراء اسوار عشرات القرون من الظلام والعزلة والخوف. وكنت سعيداً ان اجدني اضم كل ليلة الى نهم شفتي، ذلك الخيال الانثوي، مجسداً أمامي، كائناً بشرياً ملموساً، وحقيقياً.

كنت أشعر بالزهو الصبياني عندما افكر بان الفتاة التي كان مرورها العابر في الزقاق الطويل الممتد، يخلق اجنحة غير مرئية، في خيالات الاخرين، ان هذه الفتاة، بكل ما تلتف عليه عباءتها السوداء من تكوين انثوي فاتن، هو اقرب الي من أي مخلوق آخر، وانني وحدي، ذلك الفتى الذي كنته، والذي تتعايش فيه استكانة الخيال والخجل، وجموح الغضب والجرأة والغليان في مزيج غريب من المكابرة والتواضع، الغرور والبساطة والثورة والصمت، انني وحدي من يستأثر بحب تلك الفتاة الناعمة، بعشقها البكر، يتفتح لي سماوات من العذوبة النادرة.

غير ان هذا الانكفاء في ذاكرتي، هذه العودة السريعة، سرعان ما كانت تعبر، فاجد نفسي، وسط هذا العالم الجديد، ولست اتذكر كيف سرقتني الشوارع الجديدة. كيف نأى بي شارع النهر، عن ذلك الطريق الحجري!

همسات عشتروت

وقد ساعدني فيصل الياسري ايضاً، في تصميم غلاف مجموعتي الشعرية الأولى عندما نقل فكرة القصائد، الى احد اصدقائه الفنانين الشباب، وجلب لي تصميماً، وجدته ملائماً جداً، حينذاك، ليكون غلافاً للمجموعة الشعرية التي صدرت باسم "همسات عشتروت" اما الفنان الذي صمم الغلاف فهو احد أصدقاء فيصل، السيد اسامة الشيخ علي، والذي لم يسعدني الحظ، بالتعرف عليه حتى كتابة هذه الذكريات (في اواسط عام ١٩٨٣) والذي لم اعرف عنه شيئاً كثيراً، الا ما حدثني به شقيقه صديقي السيد رافع الشيخ علي، رفيق "معتقل السعدية" الذي جمعنا عام ١٩٥٦.. عام العدوان الثلاثي الشهير على مصر . في صيف ذلك العام ايضاً، توطدت علاقتي بالشاعر عبد الوهاب البياتي.

البياتي.. اول مرة

التقيت البياتي، لاول مرة، عندما كنت طالباً في متوسطة الرمادي قدمه مدير الثانوية، مدرساً للغة العربية.

حتى الان، وعبر هذه السنوات الطوال، اتذكر انه تناول الطباشير وكتب على اللوحة ابيات الشعر التالية:

اجمل ايام الهوى افلتت
منا، واخشى انها لن تعودْ
كانت سراباً عابراً وانتهى
كأنها حلم عزيز الوجود
في سنة العالم من بدئه
ان يسلم الشوك وتفنى الورود
جنة اهل الحب، في سحرها،
كانت وعوداً، وستبقى وعود.

لا اتذكر اسم الشاعر المهجري، غير اني اتذكر ان البياتي طلب الينا ان نتحدث عن هذه الابيات وما تثيره فينا من مشاعر وصور. وعندما جاء دوري للاجابة بدا طبيعياً ان اجابتي كانت احسن ما سمعه مدرسنا الجديد، لقد كنت، يومها متميزاً في دروس اللغة العربية وبالنصوص الادبية والانشاء بوجه خاص.

-الشعر هوسي الحقيقي منذ الطفولة

الصداقة مع الاب

كنت اضع خطواتي الأولى في الطريق الشاق غير مستجيب سوى للهواتف الغامضة، وسط ذلك القفر من الرمال. وكان يخيل لي دائماً انني وحيد ولعل اعمق الصداقات التي كونتها في طفولتي البعيدة، والتي حفرت في اعماق وجداني آثارها العميقة، هي صداقتي مع أبي.

لقد كان حبه لي بلا حدود ، وكان يمنحني كل شهر في حدود راتبه الزهيد، ما يؤمن لي شراء المجلات والكتب رخيصة الثمن، لقد كنت زبوناً "طيباً" للمكتبة العصرية في البلدة، كما كنت "زبوناً" دائماً في المكتبة العامة بمدينة الرمادي ولحسن الحظ، فقط كان الموظف المسؤول عن المكتبة احد اصدقاء خالي الاكبر هو السيد ثابت الراوي، الذي يسر لي، فرصة المطالعة في المكتبة، وحرية البحث بين رفوف الكتب، فضلاً عن الاستعارة الخارجية التي اتاحت لي قراءات متعددة اولية للعديد من مؤلفات طه حسين والعقاد والمازني والرافعي وشوقي والرصافي.. وعشرات سواهم. لقد كانت فترة اكثر من خصبة ضمن حدود الحياة القاحلة لبلدة عراقية مهملة، في اواخر العقد الرابع من القرن العشرين، وبالنسبة لصبي في نهاية دراسته الابتدائية وبداية لدراسة المتوسطة.

ماجد العامل

اما صداقتي الحميمة الاخرى، فقد كانت مع اخي ماجد. علاقتنا الطفولية، كانت نموذجاً، بكل سلبياته وايجابياته، للرابطة بين شقيقين يفصل بين عمريهما عام واحد.

لقد عشنا معاً، طفولة استطيع ان اقول انها متميزة الى حد كبير عن طفولة اقراننا، فان امسياتنا الماتعة مع ابي، حين يعد مائدة شرابه اليومي، وبعد ان يبدأ معاقرة كأسه الاول، ويأخذ صوته بالتهدج وهو يترنم بقصيدة ما، وتبدا كفه توزع علينا، من كل ما اعدته امنا من "مزات" ثم وهو يروي لنا، وقد استخفت به الذكريات بعض ما في ذاكرته العجيبة، من قصص ونوادر واخبار، امسيات كنا نشغف بها حتى لنكاد ان نطير، ونحن نستعيدها منه، مرات ومرات. معاً ارتبطنا، ماجد وانا، بتلك الوشائج من الحياة المشتركة، والذكريات المشتركة، اما مناكداتنا ومشاجراتنا اليومية، فقد كانت تنتهي باسرع مما نتوقع بعد ان ناخذ قسطاً من العقوبات المألوفة، وفي الحق فان ماجد استوفى نصيباً وافراً من العقوبات المنزلية، ما تزال ذكرياتها حتى ونحن في كهولتنا، مثار ضحك لا ينضب. طفولتنا المشتركة بلهوها البريء الصافي وصبانا بمرحه وجده وتطلعاته، ابقانا معاً على الطريق، واعطى لكل منا نصيبه من المعاناة والعذاب في سنواتنا اللاحقة، وهو قدر تحملناه بشعور كبير من الرجولة والوعي، والفناه برضى عميق.

امسياتنا العائلية التي شحذت خيالات الطفولة والصبا كانت نوافذنا على التاريخ فيما بعد، واعتقد ان ماجد، ما يزال يشاركني الاهتمام بالدراسات التاريخية وهو اهتمام امد كلينا فيما بعد، بمعرفة استطيع ان اقول عنها، انها جديرة بالاعتزاز، بعد ان تطورت واغتنت مسترشدة بالطريقة العلمية، في دراسة التطور التاريخي وفي محاولة فهم القوانين الموضوعية بابعادها العامة التي ميزت الخطوط الكبرى لشتى مراحل النمو والتطور والاضمحلال، في المراحل المختلفة، من تطور المجتمع البشري، وفي ملاحظة السمات الخاصة المتميزة للحضارات المختلفة.

كما ان الاهتمامات الادبية المتنوعة، وبشكل خاص، الشغف بالشعر، كان رافداً صافياً نهلنا منه معاً، ماجد وانا، في تلك الفترة المتقدمة من حياتنا، وما يزال.

ولئن قيض لي، ان اعقد علاقات شتى، مع كثير من الشعراء عبر نتاجاتهم وان اراني مندفعاً في التجاوب العفوي، مع كل ما يقع بين يدي من مجموعات شعرية حديثة ودواوين شعر قديمة فقد اختزنت ذاكرتي ما تيسر لذاكرة صبي طرية من قصائد وابيات شعرية شتى.

الشعر ظل هوسي الحقيقي، منذ طفولتي الباكرة في "راوه" تلك القرية البعيدة الرابضة على انحناء الفرات، على تلفته الجميل، ناحتاً الصخور البيضاء، مندفعاً في مساره الطويل، الى البحر في اقصى جنوب الوطن.

واذ استعيد ما تركته في ذاكرتي قرية راوه.. وانا في الصف الثالث ابتدائي، اشعر ان ليس من السهل، ان تثقل طفولة المرء، بكل هذه الاطباق من الجمال. الضفاف الغربية للقرية حيث تتشابك جذور اشجار الفاكهة، وتتدلى عناقيد الكروم وتتراقص اشعة الشمس الغاربة متلاحمة، في مزيد اخاذ مع الخضرة العميقة، والضفاف الشرقية، حين تودع مياه الفرات الجزر الرملية وسط النهر، وتعب النواعير من مياهه، ما تملأ به السواقي العالية، وتنشج ، ربما اغنية وداع للمويجاب الراحلة، وعلى ضفة رملية تحجبها الاغصان الكثيفة، لشجيرات الفواكه الصيفية اليانعة، تدور اللوالب الخشبية وتدور معها الاكف البشرية، على كتلات من الطين الاصفر النقي، قبل ان تجففها فيما بعد اشعة شمس الصيف اللاهبة، وقد استحالت الى اشكال طريفة من القلل والاكواز الفخارية، قبل ان تودع في الافران مسرات صغيرة، لا اغلى، بين انحناءات الطرق المتعرجة الضيقة، وعالم مترع بالترقب والاكتشافات الصبيانية الصغيرة الاسرة من كان يستطيع مقاومة ذلك الاغراء كله؟